مراجعة كتاب:
«التقريب الإسلامي في القرن العشرين»

بشير موسى نافع(*)

الكتاب	الأزهر والشيعة: التقريب الإسلامي في القرن العشرين
المؤلف	راينر برونر
المترجم	محمد صفار
تصدير	محمد سليم العوا
الناشر	تنوير للنشر والإعلام، ط١، ٢٠١٧
عدد الصفحات	٥٢٨

يستند كتاب راينر برونر الذي نشرته تنوير للنشر والإعلام مؤخرًا، وهو في الأصل دراسة أكاديمية لنيل درجة الدكتوراه؛ يستند إلى عملٍ بحثيٍ مكثف وواسع.

ينقسم الكتاب إلى مقدمة، وعشرة فصول، وخاتمة، وينتهي بقائمة شاملة ومفيدة للمصادر الأولية والثانوية. ورغم أن الجزء الأكبر من الكتاب قد كُرِّس لدراسة تاريخ جماعة التقريب بين المذاهِب، والتي تأسست في القاهرة على يد مجموعة من العلماء وأهل الرأي السنة والشيعة في الأربعينيات؛ فإنه لا يقتصر على ذلك. إذ يعالج هذا الكتاب، بالغ الأهمية؛ موضوعًا لم يلق عناية كافية من قبل. فرغم المحاولات السنية-الشيعية المستمرة

(*) أكاديمي ومفكر عربي. البريد الإلكتروني:
Bmnafi@Yahoo.co.uk

طوال القرن العشرين للتقارُب وإيجاد أرضية مشتركة، فليس هناك عمل واحد مكرس لدراسة هذه المحاولات والنتائج التي نجمت عنها. لهذا؛ فإن كتاب برونر يملأ فراغًا طال أمده في حقل دراسة الإسلام الحديث. والكتاب لا يعالج العلاقات السنية مع كل الطوائف الشيعية، بل يقتصر على الطائفة الشيعية الاثني عشرية، والتي تشكل أغلبية المسلمين الشيعة. وكما كل المواريث الدينية؛ تمتد جذور العلاقات السنية-الشيعية إلى التصور الجمعي للتاريخ. ومن هنا، فإن كتاب برونر يبدأ بفصل تمهيدي طويل، يُعيد بناء تاريخ الحقبة المبكرة للإسلام وسياق الاختلاف السني-الشيعي. ويبدو واضحًا في معالجة برونر أن هذا الخلاف لم يبدأ (كما هو حال الانقسامات الطائفية المسيحية مثلًا) من نزاع حول التصور الصحيح للأنظمة العقدية، بل من نزاع حول أحداث معينة، هي في جوهرها ذات طبيعة سياسية، وحول التصور الصحيح للماضي. ولذا؛ ففيما يتعلق بالمسائل العقدية، العبادات والطقوس والمفاهيم... إلخ؛ فإن الخلافات السنية-الشيعية وليدة عملية تراكُم تاريخي لاحقة.

بيد أن ما تتجاهله معالجة برونر للسياق التاريخي للخلافات السنية-الشيعية هو الفارق بين رؤيتي السنة والشيعة وتصورهم لأنفسهم. فمنذ القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، ووقوع ما أسماه مارشال هدجسون بـ(انتصار العالمية السنية)؛ أخذ الشيعة يسلكون مسلك الطائفة، مسلك المجموعة الخاصة، بينما رأى السنة أنفسهم كجسم جامع للإسلام: الأمة الإسلامية. وقد وصل التطور الطائفي للشيعة اكتماله في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، في أعقاب الغزو المغولي للمشرق والعراق وتدمير بغداد والخلافة العباسية.

وكما كل المواريث الدينية؛ تمتد جذور العلاقات السنية-الشيعية إلى التصور الجمعي للتاريخ. ومن هنا، فإن كتاب برونر يبدأ بفصل تمهيدي طويل، يُعيد بناء تاريخ الحقبة المبكرة للإسلام وسياق الاختلاف السني-الشيعي.

وخلال الفترة التكوينية للتشيع، كانت الرواية الشيعية الاثنا عشرية في جلها موجهةً ضد الفرق الشيعية الأخرى. ولكن مع بروز الصفويين في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي؛ اكتسب التشيع نزعة مناهضة للسُنة بالغة التطرف والعنف، عززتها مصالح الدولة الصفوية وقادها الحكام

الصفويون والعلماء الاثنا عشريون المرتبطون بهم. فتعهَّد الصفويون سلسلة من الإجراءات البشعة للقضاء على التسنُّن، في البلاد الواقعة تحت سيطرتهم؛ والتي استمرت حتى بعد سقوط السلالة الصفوية في عام (١٧٢٢م). لكن نجاح الصفويين في القضاء على السنة اقتصر على المنطقة المركزية من الإمبراطورية، المنطقة التي يقطنها الفرس والتركمان-الآذريون؛ أما في أطراف الدولة، في مناطق الأكراد والبلوش والأفغان؛ فقد استمر الوجود السني مهيمنًا.

*****

كانت هذه الخلفية هي ما دشَّن المحاولة الأولى لتحقيق مصالحة وتقارب سنية-شيعية. فخلال العقود القليلة التالية لسقوط الصفويين، نجح نادر خان الأفشاري (الذي عرف بعد ذلك بنادر شاه)، الزعيم القبلي بالغ الشراسة والعنف؛ نجح في توحيد الإمبراطورية الصفوية المتناحرة، بما في ذلك المناطق ذات الأكثرية الشيعية والسنية. ولوعيه بالعداء الطائفي العميق بين الشعوب الواقعة تحت حكمه وعواقب هذا العداء على الاستقرار الداخلي، إضافة إلى إدراكه للارتباط الأسطوري بين التشيع وشرعية السلالة الصفوية، وسعيه إلى منع الصفويين استعادة الحكم؛ عمل نادر شاه على وضع نهاية للانقسام السني-الشيعي. ففي عام (١٧٤٣م)؛ عسكر نادر شاه بقواته قرب مقام الإمام علي في النجف، حيث استدعى عددًا من العلماء السنة والشيعة الممثلين لمختلف الشعوب الواقعة في نطاق سيطرته. كما أرسل للوالي العثماني في بغداد يطلب إرسال أحد كبار علماء الولاية كي يشهد الاجتماع التاريخي. ولأن نادر شاه كان يأمل في أن ينعكس مشروعه التقريبي على التوتر المزمن في العلاقات الفارسية-العثمانية؛ فإن دعوته لأحد علماء بغداد لم تكن دعوة بريئة. وقد أوفدت بغداد بالفعل الشيخ عبد الله السويدي، القاضي الحنفي للولاية؛ وهو الذي ترك لنا مذكرات قصيرة لرحلته تُعَدُّ المصدر الرئيس لأحداث لقاء النجف ومناقشاته.

ولأن نادر شاه كان يأمل في أن ينعكس مشروعه التقريبي على التوتر المزمن في العلاقات الفارسية-العثمانية؛ فإن دعوته لأحد علماء بغداد لم تكن دعوة بريئة. وقد أوفدت بغداد بالفعل الشيخ عبد الله السويدي، القاضي الحنفي للولاية؛ وهو الذي ترك لنا مذكرات قصيرة لرحلته تُعَدُّ المصدر الرئيس لأحداث لقاء النجف ومناقشاته.

كان نـادر شـاه حاكـمًا مخيفًـا، فلـم يجـرؤ أي مـن العلـماء المتواجديـن في اللقـاء عـلى مخالفتـه. ولكـن مـشروع نـادر شـاه كان أبعـد مـما يمكـن تحقيقـه. إذ بـدلًا مـن أن يحـاول التقريـب بـين السـنة والشـيعة بالتعامـل مـع القضايـا محـل الخـلاف؛ اسـتهدف نـادر شـاه توحيـد أتبـاع الطائفتـين مـرة واحـدة. وقـد شـهد اللقـاء بالفعـل بعـض المبـادرات الإيجابيـة مـن علـماء الطرفـين، كـما انتهـى إلى اتفـاق مكتـوب. ولكـن اغتيـال نـادر شـاه لاحقًـا، وعـودة الفـوضى إلى ملكـه؛ أودَع مشروعـه التوحيـدي في سـجلات التاريـخ. فـلا السـلطات العثمانيـة كانـت عـلى اسـتعداد للتعامُـل مـع مسـاعي نـادر شـاه بجديـة، ولا العلـماء الذيـن جمعهـم في لقـاء النجـف كانـوا ممثلـين كافـين للطائفتـين؛ لا عـلى مسـتوى العـدد ولا عـلى مسـتوى المكانـة العلميـة، ولا حتـى أظهـروا مـا يكفـي للاتفـاق مـع الطـرف الآخـر. ومـا كان للخلافـات الطائفيـة المتجـذرة في التاريـخ أن تُحَـلَّ بـإرادة حاكـم طاغيـة.

ولكـن القضيـة الرئيسـة التـي تمحـورت حولهـا مسـاعي الاتفـاق في لقـاء النجـف، والتـي يمكـن تلخيصهـا في توقُّـف الشـيعة عـن ممارسـة الطقـوس التـي يراهـا السـنة منافيـة للشرائـع الإسـلامية، بينـما يقبـل السـنة بالشـيعة كمذهـب خامـس مـن المذاهـب الإسـلامية - أمسـت الهـدف الرئيـس لجهـود التقريـب الإسـلامي في القـرن العشريـن.

ثـم لم تسـجل أيـة محاولـة جـادة للتقريـب خـلال القـرن ونصـف القـرن التـالي لنـادر شـاه. ولكـن رايـنر برونـر يخطـئ في تقديـره لأثـر التهديـد الإمبريـالي الـذي شرع العـالم الإسـلامي بمواجهتـه في القـرن التاسـع عـشر ومطلـع القـرن العشريـن. فعـلى خـلاف مـا يسـجله برونـر؛ شـهدت تلـك الحقبـة تقارُبًـا ملموسًـا بـين السـنة والشـيعة، بمـا في ذلـك التفـاف المسـلمين السـنة والشـيعة في البلـدان العثمانيـة حـول الدولـة ومعاركهـا ضـد القـوى الغربيـة، سـواء في البلقـان أو في ليبيـا أو في العـراق. وقـد سـاهم صعـود حركـة الجامعـة الإسـلامية في النصـف الثـاني مـن القـرن التاسـع عـشر في حـدوث تقـارُبٍ مطـرد في العلاقـات العثمانية-القاجاريـة. وكلـما اشـتدت وتـيرة الاختراقـات الغربيـة الإمبرياليـة لبلـدان المسـلمين؛ تصاعـد الإحسـاس لـدى السـنة والشـيعة بالتهديـد الغـربي للديـن ولنمـط حياتهـم. هـذا الشـعور المشـترك بالخطـر وحَّـد العراقيـين، سـنة وشـيعة؛ في مواجهـة الغـزو البريطـاني للعـراق العثـماني إبّـان الحـرب العالميـة الأولى، كـما في الثـورة العراقيـة الكـبرى ضـد الاحتـلال البريطـاني في عـام (١٩٢٠م). وبعـد انتهـاء الحـرب

الأولى، وانهيار السلطنة العثمانية، ومن ثمَّ إلغاء الحاكم التركي الجديد مصطفى كمال أتاتورك للخلافة؛ تنافس عدد من الحكام المسلمين على كُرسي الخلافة.

وقد شهدت العشرينيات من القرن الماضي تدافعًا حادًا لإحياء الخلافة في هذا البلد الإسلامي أو ذاك، وأصبح كسب تأييد المسلمين الشيعة جزءًا من استراتيجيات المتنافسين الرئيسين على المكانة التاريخية والقوة الرمزية المرتبطة بمنصِب الخلافة. ولكن لم تظهر جهود ملموسة للتقريب قبل عقد الثلاثينيات.

*****

وقبل التطرُّق إلى مناقشة هذه الجهود؛ يكرِّس برونر فصلًا كاملًا لمناقشة واحد من أكثر الكتب إشكالية في تاريخ العلاقة بين السنة والشيعة في العصر الحديث: (المراجعات) لمؤلفه المرجع الشيعي اللبناني عبد الحسين شرف الدين (١٨٧٣- ١٩٥٧م)، وقد نشر للمرة الأولى في عام (١٩٣٦م). ومذّاك احتل هذا الكتاب، وما يزال، حيزًا مهمًا في الجدل السني-الشيعي. فمن جهةٍ يتكون (المراجعات) من نص جدلي يستهدف الانتصار للرؤية الشيعية لتاريخ الإسلام، ومن جهةٍ أخرى شكك كثير من المسلمين السُنة في مصداقية الإطار الذي وضع فيه الكتاب. وقد صيغ الكتاب في صورة أجوبة توضيحية، كتبها شرف الدين ردًا على أسئلة وجهت إليه من عالم سني كبير. ومن المفترض أن كلًا من الأسئلة والأجوبة حملتها رسائل متبادلة بين العالمين، السني والشيعي.

وقد صيغ الكتاب في صورة أجوبة توضيحية، كتبها شرف الدين ردًا على أسئلة وجهت إليه من عالم سني كبير. ومن المفترض أن كلًا من الأسئلة والأجوبة حملتها رسائل متبادلة بين العالمين، السني والشيعي.

ورغم أن الإصدار الأول للكتاب لم يوضح هوية العالم السني؛ فقد شاع في الأوساط الشيعية اللبنانية القريبة من شرف الدين أن المقصود هو شيخ الأزهر في مطلع القرن العشرين: سليم البشري (١٨٣٢-١٩١٧م). وقد عاد شرف الدين في كتابه (النص والاجتهاد)، الصادر في عام (١٩٥٦م)؛ ليسجل صراحة أن العالم السني المقصود في (المراجعات) هو بالفعل سليم البشري.

ويميل برونر إلى وجهة النظر المشككة في حقيقة بناء (المراجعات) على أساس

مـن أسـئلة البـشري وإجابـات شرف الديـن، وذلـك بعـد تحليـلٍ تاريخـيٍ تفصيـليٍ لحيـاة الأخـير وتحليـل نـصي لكتابـه. فزيـارة شرف الديـن المفترضـة إلى مـصر، والتـي التقـى في أثنائهـا سـليم البـشري؛ جـرت بـين أكتوبر/تشريـن أول (١٩١١م) وأبريل/نيسـان (١٩١٢م). وطبقًـا لكتـاب شرف الديـن؛ شـهِدَت هـذه الشـهور السـتة (١١٢) رسـالة بـين الطرفـين، كان آخرهـا قبـل عـودة شرف الديـن إلى بـلاده بقليـل.

لكـن كتـاب (المراجعـات) في الحقيقـة لا يعكِـس حـوارًا بـين الطرفـين؛ بـل أسـئلة قصـيرة موجَّهـة مـن السـني، صِيغَـت بخضـوعٍ كامـلٍ واسـتعداد للتلقـي مـن (المعلـم) الشـيعي، وتقبـل لمقولاتـه. بـل إن الكتـاب ينتهـي، مـن دون جـدل فعـلي؛ بموافقـة العـالم السـني عـلى جملـة الروايـة التاريخيـة التـي يطرحهـا شرف الديـن للإسـلام. وتكمُـن الإشـكالية في أن سـليم البـشري يعتـبر واحـدًا مـن أكـثر شـيوخ الأزهـر محافظـة في القـرن العشريـن؛ إذ كان قـد تـولى المشـيخة للمـرة الأولى بـين عامـي (١٨٩٩- ١٩٠٣م)، وتركهـا لاعتراضـه عـلى الإصلاحـات التـي أراد معسـكر محمـد عبـده إدخالهـا عـلى الأزهـر. وقـد عـاد البـشري لتـولي المشـيخة في عـام (١٩٠٩م)، بعـد أن خفـت الجـدل حـول الإصـلاح. وفي عـام (١٩١١م)، عندمـا جـرت المراسـلات التعليميـة المفترضـة بينـه وبـين شرف الديـن؛ كان البـشري في الثمانـين مـن عمـره. فكيـف يُعقَـل لهـذا العـالم السـني التقليـدي المحافـظ أن يقبـل بالوقـوف موقـف المتلقـي مـن عـالم شـيعي شـاب (كان شرف الديـن آنـذاك شـابًا مغمـورًا في الثلاثينيـات مـن عمـره)؛ ثـم ينتهـي إلى الموافقـة عـلى مقولاتـه كلهـا؟

بيـد أن هنـاك مـا هـو أكـثر إشـكالية. فبالإضافـة إلى أن أسرة البـشري أعلنـت مـرارًا أنهـا لم تجـد في أوراق الشـيخ سـليم مـا يشـير إلى وجـود مراسـلات بينـه وبـين شرف الديـن؛ فـإن سـيرة الأخـير تُثـير أسـئلةً حـول الأصـل الـذي ارتكـز إليـه نـص (المراجعـات). إذ إن بيـت شرف الديـن ومكتبتـه بمدينـة صـور تعرَّضـا للنهـب والتدمـير عـلى يـد الجنـود الفرنسـيين في عـام (١٩٢٠م)، عقابًـا لـه عـلى معارضتـه الاحتـلال الفرنـسي؛ وحينهـا فـرَّ شرف الديـن إلى دمشـق (قبـل معركـة ميسـلون).

وطبقًـا لـشرف الديـن؛ فـإن عشريـن كتابًـا مخطوطًـا مـن كتبـه قـد أُحرِقَـت في تلـك الحادثـة. ورغـم أن مصـادر حيـاة شرف الديـن لم تـشر إلى وجـود مخطـوط باسـم (المراجعـات) بـين أعمالـه قبـل ثلاثينيـات القـرن العشريـن؛ فالواضـح أن (المراجعـات) لم يسـتند إلى أصـلٍ مكتـوب (لا رسـائل ولا

نسخة مخطوطة) بل إلى ذاكرة مؤلفه، وهو ما اعترف به شرف الدين لاحقًا. وقد تمَّت إعادة البناء المفترضة هذه بعد مرور ربع قرن على زيارة شرف الدين للقاهرة، وعقدين كاملين على وفاة الشيخ البشري. وكل هذا بالطبع يثير الشكوك حول مصداقية رواية شرف الدين للسياق الذي ولد فيه الكتاب. وما يزيد هذه الشكوك أن "المراجعات" كتب في صيغةٍ مُشابهةٍ تمامًا لكتاب العالم الشيعي المعاصر لسقوط بغداد في يد المغول، علي بن موسى بن طاووس (المتوفى ١٢٦٦م)، (كشف المحجة)؛ وللهدف ذاته.

*****

في عام (١٩٣١م)، دعا مفتي القدس، الحاج أمين الحسيني؛ إلى عقد مؤتمر إسلامي جامع لمناقشة القضية الفلسطينية والصراع المتصاعد على فلسطين. وقد التأم المؤتمر، الذي يعتبر الأول من نوعه في تاريخ الجامعة الإسلامية؛ في نهاية العام نفسه بمدينة القدس، إذ التحق به ما يزيد على مائة من العلماء وقادة الرأي من أنحاء العالم الإسلامي كافة. وقد شهِد المؤتمر تمثيلًا شيعيًا قويًا، بحضور المرجع الشيعي العراقي محمد حسين آل كاشف الغطاء، ورئيس وزراء إيران السابق ضياء الدين طباطبائي. وفي استعراض قوي ومؤثر للوحدة؛ دُعي كاشف الغطاء لإلقاء خطبة الجمعة وإمامة المجتمعين في الصلاة الحاشدة بالمسجد الأقصى.

بيد أن القاهرة، لا مؤتمر القدس؛ هي التي ستشهد انطلاق حركة التقريب. فمنذ أدارت تركيا الكمالية ظهرها للعالم الإسلامي؛ برزت مصر باعتبارها أكثر الدول الإسلامية تأثيرًا، سواء في الحقل الثقافي أو السياسي. وفي أكتوبر/ تشرين الأول (١٩٣٦م)؛ وصل إلى القاهرة في زيارة قصيرة الشيخ عبد الكريم الزنجاني، العالم الشيعي من أصل إيراني والمقيم في مدينة النجف العراقية. وقد التقى الزنجاني شيخ الأزهر آنذاك، مصطفى المراغي؛ أهم تلاميذ محمد عبده وأكثر علماء الأزهر نفوذًا وتأثيرًا. كان الزنجاني مهتمًا باستكشاف طرق ووسائل للتقريب بين السنة والشيعة، بينما كان المراغي، طبقًا لبرونر؛ يحاول مدّ نفوذ مصر العربي والإسلامي وإحياء مؤسسة الخلافة في القاهرة. ورغم أن مراسلات الزنجاني والمراغي استمرَّت بعد عودة الأول إلى النجف؛ فلم يسفر هذا الجهد المبكر عن نتائج ملموسة. إذ لم يكن الزنجاني يعتبر من علماء الشيعة الكبار، وما من مؤشر على أن

نشـاطه في حقـل التقريـب كان مدعومًـا مـن أي مـن المراجـع الرئيسـين آنـذاك.

كان الزنجـاني مهتـمًا باستكشـاف طـرق ووسـائل للتقريـب بـين السـنة والشـيعة، بينـما كان المراغـي، طبقًـا لبرونـر؛ يحـاول مـدّ نفـوذ مـصر العـربي والإسـلامي وإحيـاء مؤسسـة الخلافـة في القاهـرة. ورغـم أن مراسـلات الزنجـاني والمراغـي استمرَّت بعـد عـودة الأول إلى النجـف؛ فلـم يسـفر هـذا الجهـد المبكـر عـن نتائـج ملموسـة.

وبعـد سـنوات قلائـل، في عـام (١٩٣٩م)؛ زار القاهـرة عـالم إيـراني آخـر هـو الشـيخ محمـد تقـي القمـي، ضمـن وفـد إيـراني مرافـق لـولي عهـد إيـران محمـد رضـا بهلـوي، والـذي حـضر للـزواج مـن الأميرة فوزيـة، شـقيقة الملـك فـاروق. وخـلال وجـوده في القاهـرة؛ سـعى القمـي هـو الآخـر للقـاء الشـيخ المراغـي، كـما التقـى عـددًا آخـر مـن علـماء الجنـاح الإصلاحـي في الأزهـر. وبعـد وفـاة المراغـي، ظـل القمـي محتفظًـا بصلتـه بمجموعـة مـن العلـماء المصريـين، مثـل عبـد المجيـد سـليم ومحمـود شـلتوت وعبـد المتعـال الصعيـدي. وأخـيرًا، وفي يناير/كانـون الثـاني (١٩٤٧م)، في أثنـاء ولايـة الشـيخ مصطفـى عبـد الـرازق لمشـيخة الأزهـر؛ تمخَّضـت جهـود القمـي عـن تأسـيس جماعـة التقريـب بـين المذاهـب الإسـلامية في القاهـرة. كان مفهومًـا ضمنيًـا أن القمـي يحظـى بدعـم وتأييـد آيـة اللـه بروجـردي، مرجـع الشـيعة الأكـبر آنـذاك. ومـع تأسـيس الجماعـة؛ صـار لمسـاعي التقريـب مؤسسـة دائمـة للمـرة الأولى، لا تحظـى فقـط بتأييـد عـالم مثـل بروجـردي، بـل وتعمـل في ظـل واحـدٍ مـن أهـم وأكـثر مراكـز الإسـلام السـني احترامًـا، الأزهـر الشريـف؛ ممثـلًا بشـيخه مصطفـى عبـد الـرازق وآخريـن مـن كبـار علمائـه.

وقـد اسـتهدفت جماعـة التقريـب تشـجيع التبـادُل الفكـري بـين العلـماء السـنة والشـيعة، ودعـم تدريـس الفقـه الجعفـري في جامعـة الأزهـر، وتطويـر منـاخ مـن التعـارُف والمصالحـة بـين عمـوم السـنة والشـيعة. ورغـم أن الجماعـة وضعـت في حسـبانها توظيـف وسـائل عـدة لتحقيـق غاياتهـا؛ فقـد كانـت مجلـة (رسـالة الإسـلام) هـي أهـم هـذه الوسـائل. بـل ارتبـط تاريـخ الجماعـة ومسـارها، إلى حـد كبـير؛ بتاريـخ المجلـة ومصيرهـا. وقـد بَنَـت الجماعـة علاقـات متفاوتـة القـوة مـع عـدد مـن العلـماء والكتـاب وأهـل الـرأي، السـنة منهـم والشـيعة؛ لا سـيما في مـصر ولبنـان والعـراق، وسـاهم أكـثر هـؤلاء في

الكتابة لمجلة (رسالة الإسلام). ولكن ما إن ارتقى الشيخ المحافِظ محمد الخضر حسين كرسي المشيخة؛ حتى فَتُرَتْ علاقة الجماعة بالأزهر. إذ عَيَّنَ الخضر حسين الصحفي محب الدين الخطيب، المعروف بتوجهاته السلفية وعدائه للشيعة؛ رئيسًا لتحرير مجلة الأزهر، فحوَّل المجلة بين عشية وضحاها إلى منبرٍ مُناهضٍ لمشروع التقريب كله. وفي عام (١٩٥٨م)، أصبح الشيخ محمود شلتوت، أحد العلماء المرتبطين بفكرة التقريب منذ انطلاقها؛ شيخًا للأزهر.

وقد بادر شلتوت إلى تعيين أحمد حسن الزيات لرئاسة تحرير مجلة الأزهر، بدلًا من الخطيب؛ وكان الزيات معروفًا بتأييده لفكرة التقريب. وهكذا، مرة أخرى؛ تغيَّرت حظوظ جماعة التقريب إلى الأفضل. وقد استطاعت الجماعة في تلك الآونة تحقيق واحد من أهم إنجازاتها على الإطلاق. كان الشيخ شلتوت قد أكَّد على تبنّيه للتقريب بين السنة والشيعة في عددٍ من المقابلات الصحفية التي أُجريَت معه في النصف الأول من عام (١٩٥٩م). لكن الخطوة الأهم كانت ما تمخَّضت عنه مقابلة لشلتوت مع صحيفة (الحياة) اللبنانية، نشرت في (٧ يوليو/تموز ١٩٥٩م). وقد تناولت الفقرة الأبرز من حديث الشيخ شلتوت عدم فرض الإسلام على أتباعه الالتزام بمذهب معين؛ فلكل مسلم الحق في اتباع أي المذاهب الفقهية التي انتقلت إلى المسلمين بالطرق الصحيحة، ودوِّنَت قواعدها تدوينًا سليمًا. ويمكن للمسلم الذي يقلِّد أيًا من هذه المذاهب الانتقال إلى تقليد مذهبٍ آخر، دون أن يتعرَّض للومٍ. ثم صرَّح مُضيفًا بجواز التعبُّد بالمذهب الجعفري، مثله مثل أي من المذاهب السنية.

لقد استبطن موقف شلتوت مؤثرات سلفية إصلاحية، وقناعة عميقة بمشروع التقريب. والحقيقة أن الأغلبية العظمى من العلماء السُنة المؤيدين لفكرة التقريب، من المراغي إلى مصطفى عبد الرازق؛ كانوا علماء سلفيين إصلاحيين. ومن جهة أخرى؛ فإن أشد الأصوات مناهضة للتقريب، مثل محب الدين الخطيب؛ كانت هي الأخرى ذات خلفية سلفية. وتدَلِّل هذه الظاهرة على التعقيد والتنوع المتنامي في الساحة السلفية الحديثة. وكما يلاحظ راينر برونر، محقًا؛ أنه ما من عالم سني، ناهيك أن يكون شيخًا للأزهر؛ قد ذهب إلى المدى الذي بلغه شلتوت في اعترافه بمذهب الشيعة. لقد كان واحد من الأهداف الأساسية لجماعة التقريب هو العمل على نقل التشيع من خانة

الطائفة إلى المذهب الفقهي الإسلامي. وقد بدا شلتوت وكأنه يمد يد عونٍ قويةٍ ومؤثرةٍ لتحقيق هذا الهدف الكبير. لكن الأزهر ليس الفاتيكان، كما أن الإسلام السُني لا يعترف بسلطةٍ دينية موحَّدة. وهكذا، فبرغم الحماس الشيعي الواسع في استقبال موقف شلتوت؛ لم يكن هذا الموقف مُلزمًا لكل المسلمين السنة. ولم يكن لهذا الموقف، بالتالي؛ أن يُبدِّد شكوك العديد من الدوائر السنية تجاه الشيعة الاثني عشرية.

لقد استبطن موقف شلتوت مؤثرات سلفية إصلاحية، وقناعة عميقة بمشروع التقريب. والحقيقة أن الأغلبية العظمى من العلماء السُنة المؤيدين لفكرة التقريب، من المراغي إلى مصطفى عبد الرازق؛ كانوا علماء سلفيين إصلاحيين.

*****

ويُسبِغ هذا الكتاب عناية فائضة على السياق السياسي (وللدوافع السياسية للشخصيات الرئيسة) لحركة التقريب. فبالنسبة إلى برونر؛ ارتبطت مبادرات المراغي التقريبية بسعيه لتأمين مقعد الخلافة لمصر، وكان جهد القمي التقريبي في أربعينيات القرن العشرين نتيجة للتطور السريع في العلاقات بين العائلتين المالكتين في مصر وإيران. أما موقف شلتوت غير المسبوق في تاريخ العلاقات السنية-الشيعية فيقرأه الكتاب في سياق الصراع المتصاعِد بين مصر الناصرية ونظام عبد الكريم قاسم في العراق، ومحاولة عبد الناصر اجتذاب شيعة العراق إلى دائرة النفوذ والتأثير المصري. وعندما تدهورت العلاقات بين القاهرة وطهران، على خلفية من اعتراف شاه إيران بالدولة العبرية في عام (١٩٦٠م)، انهارت جماعة التقريب، كما انهارت مجلتها؛ وتوقَّف نشاطها تقريبًا طوال العامين التاليين. ثم استأنفت الجماعة عملها بعد ذلك بصورةٍ مُتقطعة. وقد بُذِلَت بعض الجهود لإحياء المشروع من جديد إبّان عقد السبعينيات، في ظل العلاقات الدافئة التي ربطت السادات بشاه إيران.

والحقيقة أن تحليل برونر لا يَصِح إلا بصورةٍ جُزئية؛ إذ إن السياق السياسي لا يمنحنا تفسيرًا لتدهور علاقات جماعة التقريب بالأزهر طوال معظم الخمسينيات، رغم أن الضباط الحاكمين في القاهرة كانوا (ولأسباب عديدة) مؤيدين لفكرة التقريب. والسؤال المهم الذي كان على الكتاب أن يتعرَّض له هو هل كان بوسع عبد الناصر دفع شيخ الأزهر إلى

إصدار تصريح يتعلق بالعلاقات السنية-الشيعية، مثل الذي أصدره شلتوت؛ لو لم يكُن شيخ الأزهر مؤيدًا لجهود التقريب عن اقتناعٍ حقيقي. وما من شك في أن السياسة كانت عاملًا مؤثرًا في تشكيل تاريخ التقريب كله (كما كانت في عهد نادر شاه)، لكن المؤكد أن السياسة لم تكن العامل الوحيد؛ بل إنها في كثير من الأحيان لم تكن العامل الرئيس. فعندما غاب المؤيدون للتقريب؛ لم تستطع السياسة المضي قُدمًا بالمشروع أو حتى المحافظة عليه.

ومع نهاية السبعينيات؛ بلغت جماعة التقريب نهاية الطريق، ولم يعد أحد يسمَع بها أو يكترِثُ لتوقُّف نشاطاتها.

إذ ارتبطت معظم جهود التقريب بالنظام الإسلامي الثوري في إيران، والذي لم يستطع المضي قُدمًا بفكرة التقريب، في شقها الديني على الأقل؛ حتى ليُضاهي الإنجازات المتواضعة لجماعة التقريب. وفي الواقع، أمست العلاقات السنية-الشيعية مشروطة، وإلى حد كبير؛ بالصورة التي انطبعت عن الجمهورية الإسلامية في مختلف الدوائر بالعالم الإسلامي. وما تجدُر الإشارة إليه، أنه برغم اللهجة الساخرة التي تصبغ تقييم رايتر برونر لمسعى التقريب؛ فالحقيقة أن التقريب الإسلامي لم يكن ليُحقق أكثر مما حقَّقته جهود التقريب المشابِهة بين الكنائس المسيحية، أو المشروعات المتعدِّدة للحوار الإسلامي-المسيحي. لقد كانت فرضية برونر الأولية، وربما كانت الأكثر فائدة في تقييم فكرة التقريب؛ هي أن الميراث التاريخي للسرديات الدينية أثقل بكثير مما يمكن للمتحدثين باسم الدين التفاوض عليه. وربما كانت التجارب الواقعية والآمال المشتركة والتعايُش في الحياة اليومية؛ أكثر فعالية وأمضى أثرًا من جدل المتكلمين، بل وأقدر على تقريب الطوائف من بعضها البعض.

مركز نماء للبحوث والدراسات
Namaa Center for Research and Studies